الباب السادس والثلاثون: في العفو والحلم الصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب، وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فاصفَحِ الصفحَ الجميلَ﴾[1] قيل هو الرضا با عتاب وقال تعالى: ﴿خذ العفو وَأْمُرْ بالعُرفِ وأعرِضْ عنِ الجاهِلين﴾[2] وقال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظَ والعافينَ عن الناسِ والله يحبُّ المحسنين﴾[3] وقال تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر﴾[4] ﴿فإن ذلك من عَزْمِ الأمور﴾[5] وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت قصوراً مشرفة على الجنة، فقلت: يا جبريل لمن هذه قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال «ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود». وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: مَنْ كان له على الله أجر فليقم، فلا يقم إلا العافون عن الناس، وتلا قول تعالى: ﴿فمَنْ عَفَا وأصلَحَ فأجرُهُ على الله﴾[6] وقال علي كرم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره ويقول: لقد حبب إليّ العفو، حتى إني أخافُ أن لا أثابَ عليه وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو لارتكبوها. وقال: لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إليّ إلا بالجنايات. وقال علي كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه. وقال رضي الله تعالى عنه: اقيلوا[7] ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر، إلا ويده بيد الله يرفعه. وقال رضي الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل. وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم، وقال ابن المعتز: لا تَشِنْ[8] وجه العفو بالتقريع به. وقيل: ما عفا عن الذنب مَنْ قرع به، وقال رجل لرجل سبَّه: إياك أعني. فقال له: وعنك أعرض. وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو، والحلم، وكان يقول: ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت له فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه. وكان مشهوراً بين الناس بالحلم، وبذلك ساد عشيرته وكان يقول: وجدت

---

(١) سورة: الحجر، الآية: ٨٥.
(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٤) سورة: الشورى، الآية: ٤٣.
(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٦.
(٦) سورة: الشورى، الآية: ٤٠.
(٧) أقيلوا ذوي: ادفعوها عنهم.
(٨) تَشِنْ: تقبّح.

الاحتمال أنصرَ لي من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلُم؟ فقال: من قيس بن عاصم كنا نختلف إليه في الحلم، كما يُختلف إلى الفقهاء في الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفاً فقال: ذعرتم أخي أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدي ديته، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقــولُ للنفــسِ تصبيــراً وتعــزيــة ... إحــدى يــديَّ أصــابَتْنــي ولــم تــردِ
كــلاهمــا خَلــفَ مِــن فَقْــدِ صــاحِبــهِ ... هــذا أخــي حيــن أدعــوهُ وذا ولــدي

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر، وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب، والانتقام. وقيل من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره ولم يحمد في العالمين ذكره: والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان لا بدّ من الانتقام فليرفق في انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجار عجز عن العذر: ما هذا الوجوم[1] وعهدي بك خطيباً لسنا؟[2] فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرقّ له، وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعي ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي، والتعصب لهم. فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أعظم من نقمتك وعفوك أعظم من ذنبي ثم قال:

فهَبْنــي مسيئــاً كــالــذي قلــتُ ظــالمــاً ... فعفــواً جميــلاً كــي يكــونَ لــك الفضــلُ
فــإنْ لــم أكُــنْ للعفــوِ منــك لســوءِ مــا ... أتيــت بــه أهــلاً فــأنــت لــه أهــلُ

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً. فقال له أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم أيا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلى سبيله. وأحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد اللّه بن مالك فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إقراري يلزمني ذنباً لم أفعله، ويلحق بي جرماً لم أقف عليه، وإنكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فــإن كنــتَ تبغــي بــالعقــابِ تشفِّيــاً ... فــلا تــزهــدَن عنــد التجــاوزِ فــي الأجــرِ

فقال: لله درك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك. وعفا عنه وخلى سبيله.

وركب يوماً عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء ومرَّ على قوم. فقال بعضهم: مَنْ يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف. فقال واحد منهم: أنا. فقام وأخذ بعنان بغلته وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً فلِمَ ركبت دابة اشهابَّ وجهها فقال: إني لا أملّ دابتي حتى تملّني، ولا أملّ رفيقي حتى يملني. فقال: أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه، وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: على الخبير سقطت أمي النابغة بنت حرملة بن عزة، سبتها رماح العرب فأتي بها سوق عكاظ، فبيعت فاشتراها عبد اللّه بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت

(١) الوجوم: العبوس.
(٢) خطيباً لسناً: مكلاماً ذو لسان طيب.

وأنجبت فإن كان قد جُعِلَ لك جُعْلٌ، فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة. وقيل إن أمه كانت بغياً عند عبد اللَّه بن جدعان فوطئها في طهر واحد أبو لهب، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل فولدت عمراً فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان ينفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأبي سفيان.

وكان الواثق يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لست به. فقالت: السلام عليك يا أيها الأمير. فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقالت: ليسعنا عدلكم. فقال: إذاً لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد، لأنكم حاربتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضي الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضي الله عنه وسبيتم أهله، ولعنتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابركم وضربتم علي بن عبد اللَّه ظلماً بسياطكم، فعدلنا لا يبقي منكم أحداً. فقالت: فليسعنا عفوكم. قال: أما هذا فنعم. وأمر برد أموالها عليها وبالغ في الإحسان إليها.

وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة، وآثار مذكورة وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يوماً ما أشبه استك باست أمك. فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما. يقول: من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب. أما بعد، يا بني عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصيّ، ولباب عبد مناف، وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية، وعقولكم الكاسية، وقد، والله، أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله، إليه أن يغيب في الثرى. فكتب إلى عقيل يقول:

صدقتَ وقلتَ حقاً غيرَ أني ... أرى أنْ لا أراكَ ولا تراني
ولستُ أقولُ سوءاً في صديقي ... ولكنِّي أصدُّ إذا جَفَاني

فركب إليه معاوية رضي الله عنه وناشده في الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع. وحكي عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور، وامتلأت منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور، وساعده في مراده القدر المقدور، استحضر ليلةً خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين، ومَنْ كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَنْ كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض. فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب علي، تسمعهم كلاماً كالصوارم مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لأقبل، والمسالم لحارب، والفارّ لكرّ، والمتزلزل لاستقر. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه. قال: فما تشيرون علي فيها؟ قالوا: نشير بقَتْلها فإنها أهلٌ لذلك. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: بئس ما أشرتم به، وقبحاً لما قلتم، أيحسن أن يشتهر عني، أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها؟ إني إذاً للئيم. لا والله لا فعلت ذلك أبداً ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهِّدْ لها وطاء ليناً، ومركباً ذلولاً. فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائغة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاءه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها. فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحباً

وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير. فقال: هل تعلمين لِمَ بعثتُ إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه تعالى. قال: ألستِ راكبةَ الجمل الأحمر يوم صفين، وأنتِ بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم. قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غِيَر، ومَنْ تفكَّر أبصر، والأمرُ يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله. قال: لله أبوك فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وأن الكواكب لا تضيء مع القمر، وأن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد؛ ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا اخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالة فأصابها. فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فإنه لا يستوي المحق والمبطل ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[1] فالتزال التزال، والصبر الصبر. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، ائتوا الحرب غير ناكصين[2]، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك. قال: لقد شاركتِ علياً في كل دم سفكه. فقالت: أحسنَ الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك من يبشِّر بخيرٍ ويُسِرُّ جليسه. فقال معاوية: أو قد سرَّك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سرني قولك، وأنّي لي بتصديقه. فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم في حياته، فاذكري حوائجك تقضى. فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحداً بعد عليٍّ حاجة. فقال: قد أشار عليّ بعض مَنْ عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته، قال: كلا بل نعفو عنك ونحسن إليك ونرعاك. فقالت: يا أمير المؤمنين، كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساؤوا، وأعطى من غير مسألة. قال: فأعطاها كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل لها في كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض، وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد اللَّه بن الزبير. فكتب عبد اللَّه كتاباً معاوية يقول له فيه: أما بعد ما معاوية، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي، فانْهِهِمْ عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن. والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده، وآخره عندك يأتوك برأسه. فقال: بل غير ذلك خير منه يا بنيّ. ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه: أما بعد فقد وقفتُ على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي فاضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال، والسلام. فلما وقف عبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد اللَّه بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد. فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب. فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء.

---

(١) سورة: السجدة، الآية: ١٨.

(٢) ناكصين: محجمين ومتراجعين.

ولما دخل الفيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذا نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه. فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بدّ فوقعت عينه على الرجل فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي وإنك في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت الرجل وقال: وحلمك أوقعني. فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها عليّ. قال: نعم. فعفا عنه، وخلّى سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجاني وهو عروض قول الشاعر:

إذا مـرضتُـم أتَيْنـاكـم نعـوُدكُـمُ وتُـذنِبـون فنـأتيكـم ونعتـذرُ[١]

وحكي عن الربيع مولى الخليفة المنصور، قال: ما رأيت رجلاً أربط جأشاً، وأثبت جناناً من رجل سُعي به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرته إليه. فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرِجْ لنا منها وأحْضِرْهَا ولا تكتُمْ منها شيئاً. فقال: يا أمير المؤمنين أنت وارث بني أمية؟ قال: لا. قال: أفوصي لهم في أموالهم ورباعهم[٢]؟ قال: لا. قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمون فيه فأجعله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فاطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه، وقال: يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه. ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني وبين مَنْ سعى فيّ إليك، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما في يدي، لبني أمية مال، ولا وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً. فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين مَنْ سعى به فجمعت بينهما. فلما رآه قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي، وأبق[٣] مني، وخاف من طلبي له فسعى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوّفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه، وخوفاً من أن يقع في يده. فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه. فقال: قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد. قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي، وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسي فدعا له بالنطع[٤] والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليّ. فضحك وعفا عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع. وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة. قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة. قال ومَنْ أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا

---

(١) المحفوظ في البيت: إذا مرضتم أتيناكم نعودكمُ. . .
(٢) رباعهم: ديارهم.
(٣) أبق: هرب.
(٤) النطع: جلد يوضع تحت المراد قطع رأسه.

أنسى اسم أبي، فرد زيادة كمه على فمه وضحك وعفا عنه. وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذلَّ موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني. فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث، أتى رجل من بني تميم فقال؛ والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب، ما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أفٍ لهذه الجيف[١]، أما كان فيهم مَنْ يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه، وخلّى سبيله. وكان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقرباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي. وسئل الفضل عن الفتوة فقال: الصفح عن عثرات الإخوان. وفي بعض الكتب المنزلة. إن كثرة العفو زيادة في العمر، وأصله قوله تعالى: ﴿وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ﴾[٢] وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني فأوجست منه خيفة[٣] فقال له: أنت القائل أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها، لا أمَّ لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا إنما قلت أنا عبد الدولة، والثائر لها فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه، ثم ضحك. فقلت: أحسن من هذا قولي:

خلافةُ الله في هارونَ ثابتةٌ ... وفي بنيه إلى أن ينفخَ الصُّورُ

فقال: يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح. وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك. وأقول أي رب سَلْ مصعباً لِمَ قتلني؟ فقال: اطلقوه فلما أطلقوه قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش[٤]. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال:

أنا المذنبُ الخطاءُ والعفوُ واسعٌ ... ولو لم يكن ذنبٌ لما عُرِفَ العفوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله. فعفا عنه، وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردَّى به الإنسان الحلم، وهو، والله، عليك أحسنُ من برد الخبر[٥]، وفيه قال أبو تمام:

رقيقُ حواشي الحلمِ لو أن حلمَهُ ... بكَفَّيْكَ ما مارَيْتَ[٦] في أنه بردُ

ويقال الحليم عليم، والسفيه كليم، وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشدَّ على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلّم، تكلّم بعلمٍ، وإن سكتَ سكتَ بحلمٍ. يقول الشيطان سكوته عليّ أشد من كلامه:

إذا كنتَ تبغي شيمةً غيرَ شيمةٍ ... طبَعْتَ عليها لم تطعك الضرائب

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة:

---

(١) مفردها جيفة: الجثة النتنة.
(٢) سورة: الرعد، الآية: ١٧.
(٣) خيفة: ارتعبت.
(٤) خفض عيش: دعة ولين.
(٥) الخبر: العالم.
(٦) ماريت: جادلت.

اذكرني إذا غضبت، اذكرك إذا غضبت. فلا أمحقك[١] فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر وارضَ بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندر عينها، فقالوا: إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم. فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما يباعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب. ويقال: مَنْ أطاع الغضب، أطاع الأرب. قال أبو العتاهية:

ولـم أرَ فـي الأعـداءِ حيـنَ اختبـرتُهُـم عـدوّاً لعقـل أعـدَى مـن الغضـبِ

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصُّرَعة[٢]، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثماً أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك. وكتب عمر بن العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً قيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحد قال: تَرْكُ الغضب. وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف. فأعطى كل صحيفة رجلاً، وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إليّ بهذه الصحيفة، وناولنيها. قال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولنيها. وكان في الأولى: أقصِرْ، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإلاه، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً. وفي الثانية: ارحَمْ مَنْ في الأرض، يرحَمْكَ مَنْ في السماء. وفي الثالثة: احمِلْ عبادَ الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلا ذاك. روي أنه أنو شروان. وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليسـتِ الأحـلامُ فـي حـالِ الـرضـا إنمـا الأحـلامُ فـي حـالِ الغضـبِ

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء» وروي: ملأه الله أمناً وإيماناً، وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربته رمت بالسوط وقالت: ما تركتِ التقوى أحداً يشفي غيظه. وقال أبو ذر لغلامه: لِمَ أرسلت الشاة على علفِ الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك. قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى. واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم، فقالوا: السام عليك يا محمد: فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السام عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقالت: ألم تسمع ما قالوا: قال قد قلت وعليكم. ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له حمزة، سرق وقامت عليه البيّنة. فهم عبد الملك بقَطْع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول:

يـدي يـا أميـر المـؤمنيـن أعيـذُهـا بعفـوِكَ أن تلقَـى مقـامـاً يَشينُهـا
فـلا خيـرَ فـي الـدنيـا وكـانـت خبيثـةً إذا مـا شمـالٌ فـارقَتْهـا يمينُهـا

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة. وقالت: يا أمير المؤمنين بنيّ وكاسبي وواحدي. فقال

---

(١) أمحقك: أبطله ومحاه.
(٢) الصرعة: الشدة والغلبة.

لها عبد الملك: بئس الكاسب لك، هذا حدٌّ من حدود الله تعالى. فقالت: يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها وخلّى سبيله.

إذا مـا طـاش[1] حلمـك عـن عـدو ... وهـانَ عليـكَ هجـرانُ الصـديـقِ
فلسـتَ إذاً أخـا عفـوٍ وصَفْـحٍ ... ولا لأخٍ علـى عهـد وثيـقِ
إذا زلّ الـرفيـق وأنـتَ ممـن ... بـلا رفـقٍ بقـتَ بـلا رفيـقِ
إذا أنـتَ اتَّخـذْتَ أخـاً جـديـداً ... لمـا أنكَـرْتَ مـن خلـقٍ عتيـقِ
فمـا تـدري لعلَّـك مستجيـرٌ ... مـنَ الـرمضـاءِ فـرَّ إلـى الحـريـقِ
فكـم مِـن سـالـكٍ لطـريـقِ أمـنٍ ... أتـاه مـا يحـاذِرُ فـي الطـريـقِ

وشتم رجل رجلاً. فقال له: يا هذا، لا تغرق في شتمنا ودَعْ للصلح موضعاً فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً، فلن اجيئها كبيراً، وإني لا أكافىء مَنْ عصى الله فيّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلاماً وقف يصبُّ الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ، قال: قد كظمت غيظي، قال: والعافين عن الناس، قال: قد عفوت عنك، قال: والله يحب المحسنين، قل: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى. وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يديّ الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها، قال: قل. فأنشأ يقول:

زعمُـوا بـأنَّ الصقـرَ صـادفَ مـرَّةً ... عصفـورَ بـرٍّ سـاقَـهُ التقـديـرُ
فتكلَّـمَ العصفـورُ تحـت جنـاحِـهِ ... والصقـرُ منقَـضٌّ عليـهِ يطيـرُ
إنـي لمثلُـكَ لا أتمـم لقمَـةً ... ولئِـنْ شُـويـتُ فـإننـي لحقيـرُ
فتهـاونَ الصقـرُ المـدِلُّ[2] بصَيْـدِهِ ... كـرمـاً وأفلـتَ ذلـك العصفـورُ

قال: فعفا عنه، وخلّى سبيله. قال الشاعر:

أقـرِرْ بـذنبِـكَ ثـم اطلـب تجـاوُزَهُـم ... عنـه فـإنَّ جحـودَ الـذنـبِ ذنبـان

وقال بعضهم:

يستـوجـب العفـوُ الفتـى إذا اعتـرَفْ ... وتـابَ عمَّـا قـد جنـاه واقتـرَفْ
لقـولِـهِ قُـلْ للـذيـن كفـروا ... أن ينتهـوا يغفـرْ لهـم مـا قـد سَلَـفْ

وقال آخر:

إذا ذكـرتُ أيـاديـك التـي سلفَـتْ ... مَـعَ قبـحِ فعلـي وزلاتـي ومجترمـي

(١) طاش: ذهل وأخطأ.
(٢) المدلُّ: الواثق.

أكـادُ أقتُـلُ نفسـي ثـم يُـدركنـي علمـي بـأنـكَ مجبـولٌ علـى الكـرمِ

وروي أن عمر رضي الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره[١]. فشتمه السكران فرجع عنه. فقيل له: يا أمير المؤمنين لمَّا شتمك تركته. قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحمية نفسي.

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول:

وأنَّـا الكـاتبـونـا وإن أسـأنـا فهبنـا للكـرامِ الكـاتبينـا

فعفا عنه وخلّى سبيله وأكرمه. وقال الرشيد لأعرابي. بِمَ بلغَ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة. قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا، لا منان[٢] إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان، سمح البنان، ماضي اللسان. قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد[٣] وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخذة بالذنب من السؤدد. قال: لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه، وقلّ شفعاؤه، ولم يجد ناصراً. وقال محمود الوراق:

سـألـزمُ نفسـي الصفـحَ عـن كـل مـذنـبٍ وإن عظمـت منـه علـيَّ الجـرائـمُ
فمـا النـاسُ إلا واحـداً مـن ثـلاثـةٍ شـريـفٌ، ومشـروف، ومثلـي مقـاومُ
فـأمَّـا الـذي فـوقـي فـأعـرِفُ قـدرَهُ وأتبـعُ فيـهِ الحـقَّ، والحـقُّ لازمُ
وأمـا الـذي دونـي فـإن قـال صنتُ عـن إجـابتـه نفسـي، وإن لامَ لائـمُ
وأمـا الـذي مثلـي فـإن زلَّ، أو هفـا تفضَّلـت[٤]، إنَّ الحـرَّ بـالفضـلِ حـاكـمُ

وقال الأحنف بن قيس لابنه: يا بني، إذا أردت أن تؤاخي رجلاً، فاغضبه فإن أنصفك، وإلا فاحذَره. قال الشاعر:

إذا كنـتَ مختصَّـاً لنفسِـك صـاحبـاً فمِـنْ قبـلِ أن تلقـاهُ بـالـودّ أغضبَـهْ
فـإن كـان فـي حـالِ القطيعـةِ منصفـاً وإلا فقـد جـرَّبْتَـه فتجنَّبَـهْ

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

ولـن يبلـغَ المجـدَ أقـوامٌ وإن شـرُفـوا حتـى يـذلـوا، وإن عـزوا لأقـوامِ
ويشتمـوا فتـرى الألـوان مسفـرة لا صفـح ذلٌ ولكـنْ صفـحُ إكـرامِ

وقال آخر:

وجهـلٍ[٥] رَدَدْنَـاهُ بفضـلِ حلـومِنَـا ولـو أنَّنـا شئنـا رددنـاه بـالجهـلِ

(١) يعزره: يعاقبه.
(٢) لا منان: صاحب منة.
(٣) السؤدد: المجد والرياسة.
(٤) تفضَّلت: تكرَّمت.
(٥) جهلٍ: طيش.

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد. قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفو عاراً. وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لاسبَّنَّك سبّاً يدخل معك قبرك. فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء فهات وقله ههنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه. ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعرِضْ عن الجهل والخنا[1] أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ

وقال آخر:

وإذا بغَى باغٍ [2] عليك بجَهْلِهِ فاقتُلْهُ بالمعروفِ لا بالمنكرِ

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبِ حلمي أصمُّ وأذني غيرُ صماءِ

ويروى في بعض الأخبار أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته، فلما مدّ السماط أقبل الخادم، وعلى كفه صحن فيه طعام. فلما قرب من الملك أدركته الهيبة، فعثر فوقع من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه. فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له: ويحك يا هذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شحاً على عرضك، وغيرةً عليك لئلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبي الذي به تقتلني، قتله في ذنب خفيف فلم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي، وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكي عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدي عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان، فلما بلغه الخبر قصد العراق. فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة. فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال المأمون: لا سلم الله عليك، ولا قرب دارك. استغواك[3] الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام، فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإن وليَّ الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة. وعدل السياسة، وقد جعلك الله

(١) الخنا: الفحش.
(٢) باغ: معتدٍ.
(٣) استَغواك: أضلّك.

فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك. فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين. ثم قال هذه الأبيات:

ذنبي إليكَ عظيمٌ وأنت أعظمُ منهُ
فخُذْ بحقِّكَ أو لا فاصفَحْ بعفوكَ عنهُ
إن لم أكُنْ في فعالي من الكرامِ فَكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة. وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول، وأكثر مما تأمل، ولقد حبب إليّ العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، لا تثريب عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده، وإدخاله الحمام، وإزالة شعثه، وخلعَ عليه وردَّ أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطباً:

رددتَ مالي ولم تبخَلْ عليَّ بهِ وقبلَ ردِّك مالي قد حقَنْتَ دمي
فإن جحدتُكَ ما أوليتَ من كرمٍ إني لباللوم أولى منكَ بالكرمِ

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله أن لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعاً وعشرين امرأة. ما لهن كاسبٌ غيري، فرقَّ لهن واستحضرهن، وإذا واحدة منهن كالبدر. فقال لها الحجاج: ما أنتِ منه، قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول، ثم قالت:

أحجَّاجُ إما أن تمنَّ بتَرْكِهِ علينا، وإمَّا أن تُقَتِّلَنا معا
أحجاجُ لا تفجَعْ بهِ إن قتلتَهُ ثمانياً وعشراً واثنتين وأربعا
أحجاجُ لا تتركْ عليه بناتِهِ وخالاتِهِ يندبنَهُ الدهرَ أجمعا

فبكى الحجاج، ورقَّ له واستوهبه[1] من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه فاستأذن، فأذن له عمر. فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ أن يوقعَ به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ العفوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عنِ الجَاهِلينَ﴾[2] وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكي أن رجلاً زوّر ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشكَّ أنها خط الفضل، فشرع في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمرٍ مهم. فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل، وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل[3] والخجل، فأطرق الفضل بوجهه، ثم قال للوكيل: أتدري

(١) استوهبه: طلب أن يهبه إياه.
(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٩٩.
(٣) الوجل: شدة الخوف.

لِمَ أتيتُك في هذا الوقت؟ قال: لا. قال: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة. فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيراً في أمره. فالتفت إليه الفضل وقال له: طِبْ نفساً وامضِ إلى سبيلك آمناً على نفسك. فقبل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى. فيجب على الإنسان أن يتأسَّى بهذه الأخلاق الجميلة، والأفعال الجليلة، ويقتفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام. فقد كان أكثر الناس حلماً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم خلقاً، وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً، وأبرهم للمقتر عليه نجحا ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء في العتاب؛ فقد قيل: العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا على زلة، وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حدائق المتحابين، ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ:

أسطو عليه وقلبي لو تمكَّنَ من ... يديَّ غَلَّهُمَا غيظاً إلى عُنُقي
وأستَعِيرُ لهُ من سَطوتي حنقاً[1] ... وأينَ ذلُّ الهوى مِن عزَّة الحنقِ

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر، ومعي رجل من الأعراب، فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا، وتعاتبا وإلى جانبهما شيخ من الحي. فقال لهما: أنعما عيشاً، إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة قال الشاعر:

فدَعْ ذكرَ العتابِ فربَّ شر ... طويل هاج أولُه العتاب

وقيل: العتاب من حركات الشوق، وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

علامةُ ما بين المحبِّين في الهوى ... عتابُهم في كلِّ حقٍّ وباطلِ

وكتب بعضهم، يعاتب صديقه على تغيُّر حاله معه يقول:

عرَضْنا أنفُساً عزَّتْ علينا ... عليكم فاستخفَّ بها الهوانُ
ولو أنَّا رفَعْناها لعزَّتْ ... ولكِنْ كلُّ معروضٍ مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنتُ إذا ما جئتُ أدنَيْتُ مجلسي ... ووجهُكَ من فرط البشاشةِ يقطُرُ
فمَنْ ليَ بالعينِ التي كنتُ مرَّةً ... إليّ بها في سالفِ الدهرِ تنظرُ

وقال أبو الحسن بن منقذ:

أخلاقُك الغرُّ السجايا، ما لها ... حملَتْ قَذَى الواشينَ وهي سلافُ[2]
مرآة رأيِك في عبيدِك ما لها ... صدِئَتْ وأنتَ الجوهرُ الشفَّافُ

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حطٌّ عليه:

(١) حنقاً: غيظاً.
(٢) سلاف: خمر.

اقـرأ كتـابَـكَ، واعتَبِـرْهُ قـريبـاً ... فكفَـى بنفسِـكَ لـي عليـكَ حسيبـا
أكـذا يكـونُ خطـابُ إخـوانِ الصفَـا ... إنْ أرسَلُـوا جعلـوا الخطـابَ خُطـوبـا
مـا كـان عُـذري إن أجَبْـتُ بمثلِـهِ ... أو كنـتُ بـالعتـبِ العنيـقِ مجيبـا
لكننـي خفـتُ انتقـاصَ مـودَّتـي ... فيعـدُّ إحسـانـي إليـكَ ذنـوبـاً

وقال آخر:

أراكَ إذا مـا قلـتَ قَـوْلاً قبلتُـهُ ... وليـس لأقـوالـي لـديـكَ قبـولُ
ومـا ذاكَ إلا أن ظَنَّـك سيِّـئٌ ... بـأهـلِ الـوفـا والظـنُّ فيـك جميـلُ
فكُـنْ قـائـلاً قَـوْلَ الحمـاسـي تـائهـاً ... بنفِسـكَ عجبـاً وهـو منـكَ قليـلُ
وننكـر إن شئنـا علـى النـاس قـولهـم ... ولا ينكـرون القـولَ حيـن نقـولُ[1]

كان لمحمد بن الحسن بن سهل، صديق فنالته إضاقة ثم ولي عملاً فأثرى، فقصده محمد مسلِّماً، فرأى منه تغيُّراً فكتب إليه:

لئـن كـانـتِ الـدنيـا أنـالَتْـكَ ثـروةً ... فـأصبحـتَ ذا يسـرٍ وقـد كنـتَ ذا عسـرِ
فقـد كشـفَ الإثـراءُ منـكَ خـلائقـاً ... منَ اللؤمِ كانت تحتَ ثوبٍ من الفقرِ

وقال آخر في المعنى:

دعـوتُ الله أن تسمُـو وتعلُـو ... علـوَّ النجـمِ فـي أفُـقِ السمـاءِ
فلمَّـا أن سمَـوْتَ بَعُـدْتَ عنـي ... فكـان إذاً علـى نفسـي دُعـائـي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان، وكان له مكرماً، وابن عرادة يتجنى عليه ففارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عتبـتُ علـى سلـمٍ فلمـا فقَـدْتُـهُ ... وصـاحَبْـتُ أقـواماً بكيـتُ علـى سَلْـمِ
رجعـتُ إليـه بعـد تجـريـبِ غيـرِهِ ... فكـانَ كبـرءِ بعـدَ طـولِ مـن السقـمِ

وقال مسلم بن الوليد:

ويُـرجعنـي إليـكَ إذا نـأتْ بـي ... ديـاري عنـكَ تجـربـةُ الـرجـالِ

وقال أبو الحسن القابسي:

إذا أنـا عـاتَبْـتُ الملـومَ فـإنمـا ... أخـطُّ بـأقـلامـي علـى المـاءِ أحـرفـا
وهَبْـهُ ارعـوى[2] بعـدَ العتـابِ ألـم تكُـنْ ... مـوَدَّتُـهُ طبعـاً فصـارَتْ تكلُّفـاً

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: معاتبةُ الصديق أهون من فَقْده. وما أحسن ما قيل في العتاب:

---

(١) تضمين لبيت السموأل.
(٢) ارعوى: انزجر وارتد إلى السلامة.

وفـــي العتـــابِ حيـــاةٌ بيـــن أقـــوامِ وهـــو المحـــكُ لـــدَى لبـــسٍ وإيهـــامِ

فما ثَمَّ شيءٌ أحسن من معاتبة الأحباب، ولا ألذ من مخاطبة ذوي الألباب، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله لى سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

obeikandl.com